تداولية الاستلزام الحواري في الخطاب السردي

دراسة للاستلزامات الحوارية للأساليب الخبرية في رواية "ا لدراويش يعودون إلى المنفى" لإبراهيم الدرغوثي

د: البشير مناعي
د: دلال وشن
جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي الجزائر

Abstract :
This article deals with a phenomenon known as the "dialogical requirements" which is one of the phenomena characterizing natural languages. Dialogue is charged with semantic nuances whose meaning goes beyond their denotations, which themselves are defined by the requirements of the dialogue in an explicit or implicit manner; This phenomenon will be the subject of this article which will try to apply it on the novel of Ibrahim Al DARGHOUTHI "the poor return to exile"
Key Words: Communication.news.requirement.narration.discours.dialogue

Résumé

Cet article traite d'un phénomène connu sous la notion d' « exigences dialogiques » qui est l'un des phénomènes qui caractérisent les langues naturelles. Le dialogue est chargé de nuances sémantiques dont le sens va au delà de leurs connotations qui elles mêmes sont définies par les exigences que le dialogue impose d'une manière explicite ou implicite ; tout en considérant le contexte général du texte.
Ce phénomène fera l'objet de cet article qui tentera de l'appliquer sur le roman de Ibrahim Al DARGHOUTHI « les pauvres retournent vers l'exil »
Mots clés : communication, information, exigence, narration, discours, dialogue.

ملخص:

يتناول هذا المقال ظاهرة الاستلزام الحواري بوصفها من أبرز الظواهر التي تميّز اللغات الطبيعية، إذ إنّ عملية التخاطب تحمل معاني عديدة ليست محصورة فيما تدل عليه صيغها الصورية، بل لها استلزامات حوارية أو تأولات دلالية تحمل داخلها معاني ظاهرية وباطنية، يحددها السياق العام لقراءة النص. وذلك ما سيحاول هذا المقال معالجته وتطبيقه من خلال رواية" الدراويش يعودون إلى المنفى" لإبراهيم الدرغوثي .
الكلمات المفتاحيّة : التواصل ، الخبر ، الاستلزام ، السرد ، الخطاب ، الحوار.

إنّ البحث في ظاهرة الاستلزام الحواري بدأ مبكرا في بحوث اللغويين الغربيين، بعد اهتمامهم بمباحث فلسفة اللغة وإشكالات معالجتها لما تحمله من معنى تواصلي ونسق تأثيريّ، وقد ازداد هذا الإشكال حدّة لاختلاف المعاني في التخاطب الإنساني والتفريق بين"ما يقال" و"ما يُعنى". وسنكتفي في هذا المقال بمقاربة غرايس للاستلزام باعتباره المُنظِّر لهذا المفهوم التداولي الحديث كشكل جديد للحوار، فجاء بنظرية شاملة حاول من جاء بعده توسيعها و إيضاحها.

الاستلزام الحواري في اللسانيات الغربية:

مقاربة غرايس :

يعد الاستلزام الحواري من أهمّ المبادئ التداولية، وتعود نشأته إلى الفيلسوف بول غرايس*(H P GRICE) في محاضراته التي ألقاها بجامعة هارفارد عام 1967 في إطار بحث له بعنوان" المنطق والحوار" logic and conversation[1]،الذي حاول فيه التفريق بين ما يقال وما يقصد في الخطابات المختلفة . فهناك من يقصد ما يقول وآخر يقصد عكس ما يقول وثالث يقصد أكثر مما يقول ، فما يُقال هو ما تحمله الألفاظ والعبارات من معنى حرفيّ(القيمة اللفظية) ،أمَّا ما يُقصد فهو ما يريد المرسِل إيصاله إلى المرسَل إليه بطريقة غير مباشرة باعتبار هذا الأخير قادرا على التفسير والاستعانة بمختلف المعطيات السياقية لإدراك مراد المرسل ، فكان الاستلزام الحواريّ حلقة الوصل بين المعنى الحرفيّ الصريح والمعنى المتضمن .

وقد استهل بول غرايس عمله للتنظير لهذا المفهوم بالتفريق بين نوعين من الدلالة: الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية، إذ إنّ الدلالة الطبيعية تمثل التفسير والبيان المأخوذ من إشارات الجملة وما ينتجه ذلك من علاقة تربط الجمل كظواهر بنتائجها وأسبابها في الواقع، فتصاعد الدخان يدل على وجود النار والبثور الحمراء تدل على مرض الحصبة . فالدلالة الطبيعية لكلتا الجملتين تحيلنا على المعنى الواقعي لهما والمجسد في الإشارات الموجودة في التركيبين(الدخان، الحريق)(البثور، الحصبة) . ودلالة غير طبيعية وتعتمد أساسا على فهم قصد المرسل ونيته لا على القول مجملا مثل الرمز، فمجمل اللغات الطبيعية تخرج جملها في مقامات إنجازها من صيغتها الشكلية الصوريّة إلى معانٍ تأويلية يستنتجها السامع إذا فهم قصد مكلمه ، وما يميز المعنى غير الطبيعي عن المعنى الطبيعي هو فكرة الاصطلاح(أو المواضعة)convention ففي جملتي :

1- هذه البقع تعني الحصبة.

2- هذه الرنات الثلاث تعني أنّ الخزان ممتلئ.

فليس من الاصطلاح في شيء أن البقع تعني الحصبة، في حين أنّ الرنات الثلاث للخزان إذا ما امتلأ مسألة اصطلاحية محضة، فالدال في العلامة الطبيعية يرتبط ظهوره ارتباطا سببيّا أو وجوديا بموضوعه، أمّا في العلامة غير الطبيعية (الاصطلاحية) فإنه يفتقر إلى تناظر فيزيائي مع ما يدل عليه. فكلمة" العنقاء" لا تشبه موضوعها الدالة عليه وليس لها علاقة وجودية معه وإنما يدل عليه عن طريق تداعي المعاني عند مستعملي هذه الكلمة[2].

يقسم غرايس الاستلزام الحواري إلى قسمين اثنين هما:

أ/ استلزام عرفي(حرفي) ويتمثل فيما اصطلح عليه أصحاب اللغة الواحدة من دلالات ومعانٍ لألفاظ معينة لا تتغير بتغير السياقات والتركيب، مثل"لكن" في العربية التي تستلزم أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقعه السامع.

ب/ استلزام حواري وهو متغير بتغير السياقات التي يرد فيها، ولإيضاح الاستلزامين نصوغ المثال الآتي بين مرسل(أ) ومرسل إليه (ب):

أ/هل الجو ممطر في الخارج؟.

ب/ عليك بأخذ المظلة وارتداء معطفك أيضا.

فهذا التركيب حامل لمعنيين اثنين في الآن نفسه فمعناها الحرفي هو المتضمن نصيحة(ب) ل(أ) بضرورة أخذ المظلة وارتداء المعطف عند الخروج، أما المعنى المستلزم فهو الإجابة المتضمنة للسؤال المطروح(الجو ممطر خارجا)[3].

ولوصف ظاهرة الاستلزام الحواري أوجد غرايس مبدأ حواريا آخر سماه "مبدأ التعاون" تحكمه مبادئ فرعية أربعة بحيث يرتكز عليها المرسل للتعبير عن قصده مع ضمانه قدرة المرسل إليه على فهمه وتأويله.

2/ مبدأ التعاون(المشاركة)co-operative principale

يعتبر هذا المبدأ أساسا للعملية التخاطبيّة إذ يربط بين أطراف الحوار بشكل مستمر، فيسعون إلى تحقيق التفاهم فيما بينهم بطريقة عقلانية منطقية ، وهو مبدأ اجتماعي يتحكم في العلاقات الاجتماعية للمتكلمين من خلال الاستعمال العرفي للغة ، وأخلاقي لما يُوجِد من احترام وتداول بين المتحاورين . إنّه مجموع القواعد التي لابدّ أن يخضع لها المتحاورون حتى يتحقّق التواصل بينهم ويصلوا إلى فائدة مشتركة تنمو بقدر ما يساهم كل طرف مساهمة فعَّالة في الحوار بما يراه مناسبا لمقام التخاطب[4] .

أما المسلمات الأربع التي يقوم عليها مبدأ التعاون فهي:[5]

1/ **مبدأ الكم(quantité)**: ويعني وجوب التزام المسهم في الحوار بالقدر المطلوب من المعلومات دون أن يزيد أو ينقص.

2/**مبدأ الكيف(qualité)** مفاده أن لا يساهم المتكلم في الحوار بما يعتقد أنه كاذب وبما لا يستطيع البرهنة عليه.

3/ **مبدأ الملاءمة(المناسبة العلاقية)(partinance)** وينص على أن المشاركة في موضوع الحوار تكون مناسبة وفي الصميم(أي مفيدة) ؛ يقول ديكرو" على المخاطب تقديم المعلومات اللازمة والتي يملكها عن موضوع الخطاب وغرضها إفادة المخاطب"[6].

4/**مبدأ الملاءمة(الطريقة)(modalité)** وتوجب أن تكون المشاركة في الحوار واضحة موجزة مرتبة وبعيدة عن اللبس والغموض مثل الترتيب المنطقي أو الزمني عند سرد حادثة معينة.

هذه المبادئ تعدّ بمثابة دعائم للحوار السليم في شكله الطبيعي ، وبخرق إحدى هذه القواعد الأربع تحصل ظاهرة الاستلزام الحواري ؛ إذ يظهر عند غرايس مصطلح " الاستهزاء بالمبادئ" كشرط أساسي للاستلزام التخاطبي ،فهذا الاستهزاء يؤدي إلى الغموض و المراوغة والتلاعب في الحوار لاستكشاف معنى ضمنيّ غير مصرح به في ظاهر القول.

إنّ انتهاك المتكلم لإحدى قواعد مبدأ التعاون بصفة واضحة يدفع المخاطب إلى القيام بسلسلة من الافتراضات لتفسير هذا الانتهاك فإذا سألت الزوجة زوجها(متى عدت) وأجابها (في وقت متأخر) .. فهذه الإجابة غير كافية من ناحية الكم المعلوماتيّ فهي تخترق قاعدة الكم ،ممّا يؤدي بالزوجة إلى استنتاج أنّ زوجها لا يعلم بالضبط الوقت الذي عاد فيه سوى أنه متأخر وكفى . أمّا إذا سأل التلميذ أستاذه الفاعل يكون منصوبا دائما يا أستاذ فيجيبه الأستاذ نعم ،كما أن الحال يكون مرفوعا أيضا ،ففي هذه الحالة خرج الأستاذ عن مبدأ الكيف بتقديمه معلومة خاطئة لا دليل عليها إذ تعمّد ذلك ليعرف التلميذ أنّ إجابته خاطئة ويعاتبه في الآن ذاته عن جهله معلومة كهذه فالتلميذ يوقن أن الحال ليس مرفوعا وذلك يستلزم أن الأستاذ قصد معنى مخالفا لما تحمله كلماته وهو أن إجابة التلميذ خاطئة[7].

أما بالنسبة لخرق قاعدة الملاءمة فنورد المثال الأتي :

ا/ هل زينب تلميذة ناجحة في الرياضيات

ب/ زينب فيلسوفة حكيمة.

فإجابة (ب) لا تتلاءم مع ما يود (أ) معرفته عن زينب وهي تعني أن زينب ليست تلميذة ناجحة في الرياضيات بقدر ما هي متفوقة في الفلسفة.أما عن خرق مبدأ الجهة فيمكن التمثيل له بالحوار الأتي :

ا/ أين أجدُ خالدا.

ب/ اتجه إلى آخر الشارع واصعد العمارة التي تقابلك في الطابق الثالث ،منها اتجه نحو اليمين إلى المكتب رقم أربعة اطرق الباب وسوف تجده هناك.

ففي هذه الإجابة خرق لمبدأ من مبادئ الجهة وهو الإيجاز لأن القول فيه إطناب ،وكان من الممكن أن تكون الإجابة من قبيل " إنه في المكتب الرابع في الطابق الثالث من العمارة الأخيرة في الشارع".

كما قسّم غرايس الجمل من حيث حمولتها الدلالية إلى معانٍ صريحة ومعانٍ ضمنية[8].

ا/ المعاني الصريحة : هي المعاني المفهومة من تركيب الجملة مباشرة أو القوة الإنجازية الحرفية المباشرة ،ومن صيغها النفي ،الاستفهام ، الإثبات ،النداء...

ب/ المعاني الضمنية : وهي التي تعرف دون النظر في التركيب الوضعي للجملة ،بل يتحكّم السياق في إبرازها ومعرفتها والدلالة عليها ، وتنقسم بدورها إلى :

- معانٍ اصطلاحية تلازم الجملة في مقام معين مثل دلالة الاقتضاء.
- معانٍ حوارية تتغير بحسب السياقات التي ترد فيها الجملة مثل الدلالة الاستلزامية.[9]

مما سبق نستنتج أن المتكلم قد يحمل في مواقف عدة إلى توجيه خطابه بطريقة غير مباشرة ،ويضمنه أشياء تظل خفية دون معرفة قوانين الخطاب والقواعد التي ينتظم بها الكلام ،فيجبر السامع على التفكير في هذه الأشياء غير المصرح بها والكشف عن الكلام المتضمن في القول الصريح دون أن يفصح به هو الآخر عن طريق عمليات استنتاجية تتحكم فيها معطيات السياق بما في ذلك المنطق والتجربة ،ومما يجعل المتكلم يلمّح ولا يصرّح بجلّ أقواله أسباب متعددة منها المجتمع وما يحتويه من عادات وأخلاق ودين... الشيء الذي ينعكس على اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية إضافة إلى بعض المقامات التي تضطر المتكلم إلى استخدام متضمنات القول خشية خدش مشاعر المخاطب كما قد يكون المتحاورون على درجة عالية من الثقافة مما يدفعهم إلى الاكتفاء بالتلميح لا التصريح أو أن يكون التلميح غاية في حد ذاته[10].

- **خصائص الاستلزام الحواري:**

للاستلزام الحواري عند غرايس خواص تميّزه عن الاستلزام التقليدي**(** الاصطلاحي**)** الذي يرتبط بمعاني كلمات معينة وهذه الخصائص هي :

- يمكن إلغاؤه ،فالمعنى الضمني ثانوي بالنسبة للمعنى الصريح ، لذلك يمكن الاستغناء عنه وذلك بإضافة قول من قبل المتكلم ينكر ما يستلزم من كلامه ويحول دونه ؛فإذا قلت(لم أتذوق كل أنواع الحلوى المعروضة) فهذا يستلزم أنك تذوّقت بعضها ،لكن إذا أضفت قائلا (الحقيقة أني لم أتذوق أيّ واحدة منها) تكون قد ألغيت الاستلزام .
- أنّه متصل بالمعنى الدلالي للتركيب ولا علاقة له بالصيغة اللغوية الشكلية للعبارة مهما حدث لها من تغيير ؛ فلو استبدلت مفردات وعبارات بأخرى ترادفها لا ينقطع الاستلزام لأن مستقره المعنى مثل

- لا أريد أن تأخذي ملابسي .
- أنا أنظفها وأرتّبها داخل الخزانة فقط.

فالقول الأخير يستلزم نفي الأخذ مطلقا رغم تغيير الصياغة والإجابة الصريحة هي (أنا لا آخذ ملابسك).

- أنّه متغيّر بتغيّر السياقات التي يرد فيها ؛فالاستلزام غير ثابت يخضع للطبقات المقاميّة .فيمكن لتعبير واحد أن يؤدّي إلى استلزامات مختلفة إذا ما تباينت السياقات ،فعبارة " وعليكم السلام " إذا قلتها حين دخول أستاذك تنبيء عن الاحترام ، وإذا قلتها لشخص آخر وتزوي وجهك فذلك يستلزم أنك لا تحترمه...
- أنّه يمكن تقديره بمعنى أنّ المتكلم بإمكانه أن يقوم بمجموعة من الاستنتاجات أو العمليات الذهنية بناء على ما سمعه من كلام ،وصولا إلى الاستلزام المطلوب بعيدا عن المعنى الحرفي . فإذا قلت(جارتنا أفعى) فالمستمع الحاذق يدرك أنّ المتكلم لم يقصد المعنى الحقيقي وأن الجارة فعلا زاحفة من الزواحف ، وإنما يختفي وراءه معنى أراد

المتكلم إخباره به ولكنه لم يسر على قواعد الطريقة المعتادة في الحوار .. ولا شك أنه قَصَدَ إضفاء بعض صفات الأفعى على هذه المرأة تعبيرا عن دهائها ومكرها ،فيقوم المستمع بتقدير الكلام حتى يفهم المعنى[11].

الاستلزامات الحوارية للأساليب الخبرية في رواية" الدراويش يعودون إلى المنفى" لإبراهيم الدرغوثي:

استطاع المنجز السردي العربي في العصر الراهن أن يخترق الفضاء ويختزل الزمن بركوبه موجة جديدة للكتابة السردية التي تعتمد على التأصيل والتجريب والعجائبية[12].

والروائي التونسي إبراهيم الدرغوثي ينتمي إلى هذا التيار ،تيار التأصيل الروائي العربي الذي يهدف إلى تشخيص مفارقات التاريخ القريب واليومي حالا بحال ، ويبني منجزا سرديا له خصوصياته النوعية لا يقف فيها التراث تمثالا جامدا أو واجهة فحسب بل يوظّفه بحيث يغدو المتن الحكائي المستوحى من التراث بشخوصه ولغته وفضاءاته استعارة يتكئ عليها لتعرية الواقع الحالي أو الماضي الذي لم يدفن بعد .

إنّ القارئ لروايات الدرغوثي يستشف أنّ الكاتب لم يقصد أن نقرا فحسب ؛فالقراءة ليست غاية في حدّ ذاتها إنّما هي وسيلة لبلوغ غاية أسمى واستلزامات أعمق توصلنا إليها الحكايات المتناسلة داخل الرواية الواحدة " فالرواية عند الدرغوثي ليست حكاية تُحكى وإنّما هي حفر في الذاكرة المطمئنّة وغوص في الغريب والمفاجئ بل العجائبي في ما عدّ مألوفا أو بلا معنى"[13]. ليثير من خلالها تساؤلات – كان لابد أن تلفت انتباهنا في هذا الواقع- من غير أن يجيب عنها فليست تلك وظيفتها ". وهذا يعني أنّ الرواية لا يقين لها ولا تدعو إلى يقين ،وإنما هي تزرع الشك وتضع العالم بأسره في حالة أزمة لأن غايتها هي أن تطرح السؤال لا أن تقدم أجوبة... الرواية لم تجب وليس من شأنها أن تجيب وإنّما ظلت تسخر وليس أفضل من السخرية جوابا على ذاك السؤال"[14].

ويمكن معرفة مجموع القضايا التي يثيرها الدرغوثي في روايته" الدراويش يعودون إلى المنفى" من خلال مجموع الاستلزامات الحوارية التي يمكننا الوصول إليها واستخلاصها من الأساليب الخبرية الواردة فيها.

فمن البداية يدعو الكاتب القارئ العربي أن يستيقظ من غيبوبته لاكتشاف الاستعمار في ثوبه الجديد ويرغم الكاتب على الكتابة كأضعف الإيمان ويملي عليه درويش تفاصيلها.

يقول الكاتب "في اليوم الرابع سأل عن السوبر ماركت نطقه هكذا بلكنة أمريكية ..." [15] لماذا اللكنة الأمريكية دون سواها لأن أمريكا هي الشبح الذي يسيطر على كل العالم يتدخل في كل شيء ويعبث بالعالم كما يريد ، ونحن لازلنا لا نعلم من عدوّنا الحقيقي ،لازال الرجال العرب نائمون ودرويش يستنهضهم " ومرّت أيام و مرّ أسبوع ومرّ شهر وشهور ومرّ دهر ومرّت دهور ودرويش يترقّب مجيء الرجال ،والرجال توسدوا نهود النساء وناموا ،رأوا درويش يمشي على الماء وناموا.." [16] وكان الكاتب في هذا الإخبار لا يحكي عن درويش بل عن الوطن العربي ، وتحوّل درويش إلى قوّة خطيرة ؛فبعدما قام بأفعال كثيرة يستثير بها الرجال ويختبرهم ولكن الرجال نائمون ،انتظرهم أياما وأسابيع بل شهورا ودهورا ولكن الرجال العرب توسّدوا نهود النساء وأغرقوا في اللهو والمجون ،ودرويش الذي يعلم أنّ الدول المتقدمة ستكرر فعلتها بالمجيء من ناحية البحر ،يترقب جاءتنا تزحف ولا نبالي ونرفع رؤوسنا ونرى الزحف اقترب منا ونسخر ونستهزئ "فنار درويش لا تحرق "[17] وكل منتجاتها في عقر ديارنا " حتى شيخ القبيلة في خيمته يتنصت إلى طنين مكيف الهواء"[18].

وفي موضع آخر يشير الكاتب إلى سلاح السياحة الذي يستعمله الغرب للاستيلاء على كل ما هو شرقي ، فيتحدث عن السائح الفرنسي فرنسوا مرتال " ووصل ككلّ مرة يصل فيها إلى زقاق البهاليل أمام مبنى قديم تهدّمت جدرانه ،إلا أنّ يد الفنان الذي أبدع الرسوم والأشكال الهندسية على الحيطان بالأجر الأبيض والأحمر والأصفر والبني مازالت ماثلة للعيان حتى هذا اليوم ،وصور تلك الرسوم من جهات مختلفة وبأضواء مختلفة وبعدسات مختلفة وتحسّر على هذه الكنوز الضائعة"[19] فالتحسّر على الشيء هو قمة الحزن عليه فهذا السائح الأجنبي يعرف تماما قيمة هذه

المنقوشات على الجدران ، ويقدر فعلا هذا الإرث الثقافي الفني لأنّه نشأ على احترام كلّ ما هو جميل ونـــادر ، ودليـــل ذلك أنّه اعتبرها كنوزا ولكنّها للأسف " كنوز ضائعة" ،أما نحن أصحاب هذا الإرث العظيم لا نقـــدّر قيمتـــه ولا نقـــدّر أصحابه ولا نعطيه حتى حقّه من الاهتمام ؛ففنانونا يموتون كما يولدون ولا نسمع عنهم إلا يوم تشييع جنائزهم .

ويتفطن درويش إلى هذا السائح الفرنسي وإلى نواياه الخبيثة فيحرقه بناره بعدما حاول التقدّم منـــه" نظـــر إلـــى النيران المشتعلة في رجلي درويش أغمض عينيه مرة أولى وفتحهما ثم أغمضهما مرة أخرى وفتحهما اقترب أكثر مـــن النار وقرب جمرة من وجهه ،نار درويش لا تحرق قال الرجال أحس بلهيب النار يكويه فرمى الجمرة أرضا"[20] .فلِمَ لَمْ تحرق نار درويش كل الرجال عدا هذا السائح الفرنسي ،إن درويش يعلم يقينا أن هذا الفرنسي قد أدرك ســـحر الشـــرق فجاء ينهبه ويسلب كلّ ما تصل إليه يداه ، عرف أنّ هذه الفرنسي سائح جاء لغرض آخر غير السياحة ورجال الشـــرق نائمون لا يعرفون حقيقته بعد.

ثم يذكر الكاتب أن النهب والسرقات الغربية للعرب بدأت منذ الأزل " وكتاب العبر ودوركايم تتلمذ علـــى ابـــن خلدون وسرق منه علم الاجتماع" [21] فالسرقات توالت منذ أن نام هؤلاء العرب ولم يستفيقوا بعد لحالهم ،منذ القديم سرق الآخر تراثنا علومنا آدابنا تاريخنا... وهاهم اليوم يواصلون النهب بصورة أخرى اسمها " التحضر والسياحة والانفتـــاح" وما هذا الفرنسي إلا صورة عنهم جميعا.

وينتقل الكاتب إلى الحيلة التي يستعملها الغرب للتدخل في شؤون العرب وسياساتهم الداخليـــة وكيـــف أصـــبحوا ينظرون إلينا على أننا إرهاب الدول في مقطع غريب مغرق في العجائبية ترد هذه العبارة " وزير الإعلام يتحدث عـــن اكتشاف كلاشنكوف داخل حقيبة مسافر عربي في مطار دولي"[22] لماذا المسافر العربي دون غيره هو المتهم ؟لماذا اتهم بحمل السلاح دون غيره من الأشياء المحظورة الأخرى ؟ إنها نظرة الغرب لنا على أننا إرهاب العصر بعد أن اختلطت المفاهيم وأصبح الجهاد بمثابة الإرهاب وقَوَّلوا الإسلام ما لم يقلْ وما لم يَدْعُ له البتّة.

ثم تأتي الأنوثة سلاحا آخر لإغراء الرجل العربي ؛ جعلوا خطيئة حواء الأولى تتكرّر كلّ يوم معه حتى يتســـنى تجريده ، وفي مشهد تتكرر فيه الخطيئة خطيئة أمّنا حواء وأبينا آدم عندما أكلا من تفاح الجنة يطالعنـــا الكاتـــب علـــى مشهدهما وهما يعاودان الخطأ ولكن بتفاح مستورد من تركيا " وتمدّ حواء التفاحة لآدم وتقول كُلْ التفاحة يا حبيبي ،هذا التفاح الأحمر له رائحة أحلى من المسك ،هو تفاح مستورد من تركيا ،كُلْ ولا تخف ..وتعضّ التفاحة بأسنانها البيضـــاء كالثلج ،تقضم قطعة وتمدّها لآدم ..يقطر منها الرضاب - هذه الثمرة ممنوعة يا حبيبتي وأكلها حرام علينا.

لماذا تقول حواء وهي معروضة في الأسواق وتحت الشجر وفوق أغصان الحـــدائق العموميـــة ... ويشـــجعه فرنسوا مرتال لماذا كل هذا الاضطراب يا آدم ؟ كل ولا تخف ،فالتفاح عندنا زهيد الثمن وهـــو ملقـــى علـــى قارعـــة الطريق" [23] فليست حواء فقط هي التي تشجع آدم على الأكل منه ،بل فرنسوا مرتال كذلك يحبّبه إليه تماما كما نستورد كل الرذائل و الملذات من الغرب وهم يغروننا ونحن نغرق في أوحاله ، يزجّون بنا وبشـــبابنا إلـــى دهـــاليز الخطيئـــة وغياهب المحرّم باسم التحضّر .

ولا يكتفي هؤلاء بالسخرية من الشرق حاضرا بأساليب ملتوية بل يتنكّرون لأمجاد عربيّة صـــنعها الأبطـــال ؛إذ ينادي العربي على السائحة الأمريكية "مسز تعالي هنا هذا جمل عبلة زوجة عنترة فارس بني عبس العبد الأسود قاتـــل الأبطال وفالق هامات الرجال ،هل تعرفين عنترة يا سيدتي الجميلة نعم نعم اعرفه هو كلب صـــاحب الفنـــدق وتتعـــالى الضحكات"[24] ؛ فالمحتوى القضوي لهذه الجملة هو الإخبار عن ملكيّة صاحب الفندق كلبا اسمُه عنترة ،ولكن المســـتمع لذلك يدرك تماما أنّ المعنى المستلزم غير هذا ،فهم لا يعترفون بأبطالنا وبشجاعتهم ،حتى أنّهم سمّوا حيواناتهم بأســـماء هؤلاء الأبطال ،وأيّ حيوان ؟إنّه الكلب دون غيره .. قمة التقزيم والاحتقار ،ثم تتعـــالى الضـــحكات وكـــأنهم تأكّـــدوا واطمأنوا أنّ العرب لم يعودوا يملكون أبطالا مثلهم ،ولذلك فلا خوف منهم ولْيُسَمُّوا كلابهم على أسمائهم إذلالا لهم ولما

فعلوا حتى أنّ أصوات الرجال أمام إغراء السائحة الأمريكية المتعرّية تحوّل إلى نباح " وترحب بهم الكلاب وينبح الرجال "[25] ، فهذه الجملة خبريّة محتواها القضوي هو الإخبار عن صوت الرجال ولكنه ليس صوتا إنسانيا ، إنه نباح .. والسامع لهذا الأسلوب الخبري يوقن تماما أنّ الرجال لم يتحوّلوا إلى كلاب حقيقية فعلا بل شبّههم بذلك أمام إغراء السائحة الأمريكية ذات الفخذين الشقراوين ، فهي تؤدّي مهمتها بكل إتقان ،بُعِثت كي تغري الرجال العرب وتُسيل لعابهم وتقاسمهم السرير الواحد تلو الآخر وتمنحهم المتعة الجنسية ،وفي تلك الأثناء تنهب البلاد العربية وتستغل أبشع استغلال والرجال العرب مذبوحون أمام الجمال الغربي .

وتنجح الأمريكية في مهمتها التي جاءت كسائحة من أجلها ومن ورائها أمريكا وكل الغرب ،يقول الدرغوثي " وتضحك السائحة الأمريكية التي كانت تراقص الملك وتقول له ما رأيك لو أبادلك هذا الزيت اللزج الكريه الرائحة بقارورة عطر فرنسي وسبحة ومرسيدس وسيوف يمانية وسرير مذهب الحواشي وغلالة شفافة من الحرير ،ويرد عليها ملك الحيرة أنت ضيفتي ونحن كرام والضيف لا يرد له طلب "[26] هي تضحك لسذاجة النعمان ووزيره الذي خال النفط زيتا ،فطلب من سيده أن يكتم السر حتى يتّقوا حسد قبائل هوازن وثقيف ؛فنحن نعادي بعضنا ولا نعادي أعداءنا ومنذ الأزل نحن مرضى بالسخاء اللامنتهي والذي يوضع خطأ في مكان غير مناسب ... تأخذ الأمريكية النفط وهو عصب اقتصاد بلادها بكل سهولة مقابل مغريات دنيوية وبهارج لا فائدة منها .

وليست السائحة الأمريكية وحدها هي من نجحت في مهمتها بل فرنسوا مرتال أيضا السائح الفرنسي نجح هو الآخر بعد أن أغدق الجميع بأمواله ومخدراته وأشياء أخرى شغلتهم عن الذكر وعن العديد من عاداتهم الدينية ؛ فقد "صار منزل الفرنسي محجّا للأهالي يطوفون حوله ويتبرّكون بأحجاره حتى الكبار شيوخ القبائل وقادة الجند وكبار التجار جرّتهم رائحة " الكيف " إلى هناك فجاءوا زرافات ووحدانا وحطّوا الرحال داخل حديقة القصر. وترك الشيوخ قراءة القرآن وقيام الليل والتهجد وإتمام الأوراد ، وجاءوا يتسوّلون سجائر الأفيون ويشاهدون الأفلام الخليعة ويمارسون الجنس مع السائحات والسياح الفرنسيس والألمان والأمريكان " [27] بهذا أغراهم السائح الفرنسي ودرويش يراقب ضلالهم وهو غير راض ، فيحاصرهم بأصابعه بعد أن تضخمت كفه ويهصر أجسادهم هصرا فيسيل العرق وتختنق أنفاسهم ،وتتحول أصابعه إلى كتل من الصخر ترجمهم . ولم يكتف درويش بهذا بل يقرّر أن يعود إلى منفاه وكأنه ضاق ذرعا بهذا الواقع الذي يرى ، ولكن دون أن يترك الأطفال الأبرياء يقرّر أخذهم بطريقته الخاصة " ويضم درويش الأطفال إلى صدره ثم يصلي وإياهم صلاة "الوداع" ، ورأيت المطر يهطل مدرارا فيغسل رجلي درويش وتخمد نار جهنم المشتعلة فيهما منذ الأزل ،ويقوم يتكئ على عصاه ويفتح الطريق والأطفال يسيرون وراءه ،كان يقول لهم لا تلتفتوا أبدا إلى الخلف يا أولادي حتى لا تتحولوا إلى قردة أو تتخطفكم الشياطين وتمسخكم تماثيل من الحجر والقرية وراءهم تبدأ في الارتفاع نحو السماء ترتفع القرية ببطء شديد كأنها باخرة كبيرة تغادر الميناء في منتصف الليل وتبتعد أضواء المنازل وتصغر الصورة رويدا رويدا...كأنّما شمس تفتت إلى ملايين الأجزاء "[28] فهذه الفقرة تتضمن معاني كثيرة ؛فقصّة درويش مع الرجال العرب ورحيله مع الأطفال تذكرنا بقصة سيدنا لوط مع قومه لما دعاهم إلى التوحيد فلم يؤمنوا ،فلمّا استيأس منهم أوحى إليه الله أن يرحل مع من آمن منهم لأنّ هذه القرية ستحل عليها اللعنة صبحا ،وأمرهم ألا ينظر أحدهم إلى الوراء حتى لا يمسخوا ،فلم ينظروا إلا امرأته كانت من الخاسئين . وكذلك درويش استيأس من مناداة رجال لا نخوة فيهم ؛صمّ بكم لا يسمعون ..قرّر الرحيل ،فصلى مع الأطفال صلاة الوداع وذهبت كل تلك الأمارات التي تميّز الدرويش (انطفاء النار التي بين رجليه) ويفتح الطريق بعصاه للأطفال وهنا عصاه تشبه في تأثيرها وفاعليتها عصا سيدنا موسى ،ويطلب منهم ألا يلتفتوا إلى الخلف حتى لا تمسخهم الشياطين تماثيل حجرية ثم من ورائهم تحل اللعنة بالقرية التي تفتت كذرات الرمل محدثة دويا رهيبا.

ثم بأسلوب إخباري يحمل الكثير من الاستلزامات يعود بنا الدرغوثي إلى سرّ العداء الذي تنامى بين هذا السائح الفرنسي ودرويش الذي وحده يعلم حقيقته يظهر هذا العداء في الرسالة التي تركها درويش داخل المحفظة أمانة يوصلها أوّل من يجدها إلى منزل فرنسوا مرتال دون فتحها ، يقول في تلك الورقة " أنا أكرهك أيها الفرنسي اللعين ومع ذلك فقد قررت أن استودعك بعض أسراري ،أعرف أنك مغرم بالنبش داخل دهاليز الذاكرة وبالبحث عن صور بدء الخليقة ،وقد قررت قبل الصعود إلى المنتهى أن أترك عندك محفظتي وما فيها وديعة حتى أعود راكبا على ظل حصاني "[29] فدرويش متهم بأكل صور بدء الخليقة من قبل هذا الفرنسي ،وعلى الرغم من ذلك قرّر أن يستودعه أسراره كما صرّح له بكرهه الشديد وما تلك الأسرار إلا سور قرآنية و أحاديث نبوية وأشعار عربية ونماذج لخيبات عربية اقتتل فيها العرب فيما بينهم .

فتحها فرنسوا فإذا بها " الفتنة الكبرى ودم عثمان وقميص عثمان وأصابع نائلة وسيف بن ملجم ينغرز بين أضلع الخليفة الرابع ... والوليد بن يزيد الأموي يعلق المصحف في شجرة ويرميه بالنبال والمأمون يذبح الأمين ... وملوك الطوائف يستنجدون بالكفار لذبح أبناء العم ورائحة شواء لحم أبناء العم تصل السماء السابعة" [30] ولكن لماذا استأمن درويش فرنسوا مرتال على أسراره وهو غريمه ،لأنّه أمهله حتى يعود على حصانه وكأنّه سيصعد إلى المنتهى حيث منفاه ،سيستجمع كل قواه ويرقب هؤلاء السذّج من أعلى ، ثم يأتي ليخلّصهم ممّا هم فيه.

وبقي فرنسوا يفكر بعودة الدرويش حتى رآه في منامه " رأى درويش في هيئة طائر كاسر يحوم حول المنزل حوم الطائر مدة طويلة ثم حطّ على رأسه....(رأس الكافر) تململ يمنة ويسرة . والطائر جاثم فوق الرأس ثقيلا رهيبا مرعبا ..والطائر يأكل من رأس الفرنسي ثقب الجمجمة وراح يكرع من المخ والمنقار المحدودب يرتفع و يهبط بخفة ورشاقة" [31] يذكّرنا هذا المشهد بتفسير سيدنا يوسف لمنام أحد صاحبيه في السجن ؛إذ يصلب وتأكل الطير من رأسه وكذلك فرنسوا تخيّل درويش طائرا كاسرا يثقب جمجمته بمنقاره وكأنه يريد أن يستخرج كل ما قرأ فرنسوا من معلومات وأسرار وجدها داخل المحفظة التي تركها له قبل أن يصعد ، ولكن فرنسوا يستفيق ويحمد الله أن عادت له صور بدء الخليقة فهي مرغوبه الذي سكن من أجله هذه الصحراء.

ثم يعود الكاتب يتذكّر ويذكّرنا على لسان عبدو كيف تنامى العداء واشتد بين درويش وفرنسوا مرتال منذ أن عرف درويش حقيقة هذا الفرنسي اللعين . يقول" هكذا مرّت السنون الأولى إلى أن كان اليوم الذي التقى فيه بدرويش فتغيرت كل عاداته صار يطلب مني أن أُحكم إغلاق الأبواب وأن أكون يقظا أناء الليل وأطراف النهار ولم يعد ينهر الكلب عندما يشتد نباحه عند الفجر وأكثر من طرح الأسئلة على درويش وتردد اسمه في كل المناسبات التي سمعته يهتف فيها إلى باريس حكى عن درويش الذي يشعل النار في رجليه وعن درويش الذي يدفع للأطفال ثمن طائرات الورق وعن درويش الذي يهزأ من رجال القرية ويسب شيوخ القوافل وتجار الصناعات التقليدية واستحكم العداء بين الفرنسي وبين درويش. كان فرنسوا مرتال يردد بمناسبة وبدون مناسبة (أكل هذا الوحش الشرقي صور بدء الخليقة) "[32] فتصرفات هذا الفرنسي منذ أن جاء بدت غريبة مريبة ملأ أيدي البنائين والنجارين والحدادين بالدنانير ،وملأ بطون الرجال والأطفال بكل ما يشتهون ،استغل كلّ شيء لصالحه ،سأل عبدو عن الخلافات التي توجد بين العائلات وعن أسبابها ،عن أصل العداوات بين القبائل التي تسكن الجهة ،وعن الزيجات بين الأقارب ، وعن عدد الصم والبكم في كل فخذ من هذه القبيلة أو تلك ،قاس أحجام رؤوس الأطفال ،وزّع حبوب منع الحمل شجّع الأطفال على مطالعة الكتب الفرنسية ،حضر مع الشيوخ حلقات الذكر وسجل ملاحظاته على دفاتر صغيرة ويهتف إلى تونس كلّ يوم ،ملأ جيوب عبدو بالدنانير وبطنه بالويسكي ورأسه بالحشيش ،سأل عن درويش وردّد اسمه في مناسبات كثيرة دفع المال لأجل الحصول على أخبار عنه. فلم فعل فرنسوا كل هذا ؟ أليس لأجل أن يستغل أمورا كثيرة كهذه يستعملها ثغرات كي تخدمه في مسعاه ،عرف كيف ينقل رذائل حضارته إلى مجتمعنا ورغم ذلك بقي يخاف من درويش و من كل ما هو

آت. إلى أن ظهرت الحقيقة ذات يوم بالمصادفة واعترف فرنسوا بالاستسلام يقول عبدو " مشى ناحيتي بخطوات ثقيلة قال وهو يقترب مني لا تحاول الهرب فلن تقدر على ذلك أريد أن تدسّ هذه الكلمات في دماغك رصاصة واحدة لا تكفي لثقب السماء يا صاحبي ومات"[33] .

استسلم فرنسوا لأنه وجد من يصدّه وليس خير من الاعتراف دليلا على الانهزام ؛فالسماء هي الوطن العربي وهو الرصاصة التي جاءت تحاول اختراقه ،ورغم كل ما فعل لم يستطع فرنسته بألاعيبه التي أصبحت مكشوفة لدى درويش وإن انطلت على الأغلبية من العرب ،ولكن غيره من الغرب جاءوا بجيوش عرمرم ينصرونه ويناصرون ما فعل فغزا الغرب البلاد العربية فلسطين.. بلاد ما بين النهرين... ثم يتكلّم هذا الوطن الجريح يشتكي آلامه الطويلة المدى ودون أن يغير أهله شيئا. يقول الوطن " وبعد أن مرّت كل هذه الأعوام والدهور مرور السحاب وأنا كما أنا ما تغيّر شيء في ، أنا الجميلة دوما العاشقة دوما المعشوقة دوما أنا الحبلى بكل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين أنا التي تعطي ولا تمنن أنا التي تجوع ولا تشتكي أنا التي (عفوا لن أقول كل شيء)... أردته أن يختار هذه طريق الجنة وهذه طريق النار هذه أبواب قلبي موصدة بألف قفل وهذه المفاتيح في كفي وهذا الغريب يترصّده ويترصّدني وأنا الحبلى قمحا وزيتونا وعيونا في طرفها حور"[34].

فرغم أن هذا الوطن يحمل الخيرات جميعها إلا أننا لا نحسن المحافظة عليه ولذلك أخذ درويش كل سكان قريته (الدراويش) رجالا ونساء وعاد إلى منفاه.

ومحصول القول إن الأساليب الخبرية لم ترد في الرواية للوصف أو التقرير فقط وإنما تجاوزت ذلك إلى معان استلزامية حوارية تُفهم من السياق وتُستنتج من مقام التخاطب ؛فالدرغوثي كان الكاتب المرسل الذي يحاور قارئ هذه الرواية ليُعمل فكره ويستنتج كلّ ما لم يصرح به هذا الكاتب العجائبي الغامض. وهذا ما يزيد من جمالية الأسلوب الدرغوثي من حيث التفرد ولفت الانتباه.

الهوامش:

* بول غرايس فيلسوف انجليزي ينتمي إلى أصحاب الفلسفة التحليلية بجامعة أكسفورد وهو من مؤسسي نظرية أحكام المحادثة وما تحتوي من مفاهيم كالافتراضات المسبقة الأقوال المضمرة ...

1 . محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،دار المعرفة الجامعية،مصر،2002م.ص32.

2 . ينظر صلاح إسماعيل ،نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس ،الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة ، مصر 2005م ،ص 39 40.

3 . آن روبل، جاك موشلار،التداولية اليوم علم جديد في التواصل،ترجمة سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني،المنظمة العربية للترجمة،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،لبنان،ط1،تموز(يوليو)2003م ص 57.

4 . فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع،ط1، 1987 م ص72.

5 . ينظر صلاح إسماعيل ،نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس ،ص 87.

6 . حمو ذهبية،لسانيات التلفظ وتداوليات الخطاب ديوان المطبوعات الجامعية جامعة تيزي وزو ص 176.

7 . ينظر محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص 36.

8 . مسعود صحراوي،التدوالية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة " الأفعال الكلامية "في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،ط1، تموز يوليو 2005م.

9 . ينظر المرجع نفسه ص 36.

10. ينظر عمر بلخير،تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية،منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2003 م ص 111 112.

11. ينظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص 38 39.
12. ينظر شادية شقروش ،الخطاب السردي في أدب إبراهيم الدرغوثي ،دار سحر للنشـــر المغاربيـــة للطباعـــة والنشـــر و الإشهار، د ط ،د ت، ص 05.
13. مجموعة مؤلفين، قراءات نقدية في روايات إبراهيم الدرغوثي ،دار إشراق للنشر ،تونس ،2009م، ص 09.
14 . المرجع نفسه ص 11.
15 . ابراهيم درغوثي رواية الدراويش يعودون إلى المنفى تقديم محمد السبوعي حنبعل للإنتاج الإعلامي والوكالة المتوسطية للصحافة تونس 2006 ص 27.
16. الرواية، ص27
17. الرواية،ص29.
18. الرواية،ص 29.
19. الرواية،ص 35.
20 . الرواية،ص35.
21. الرواية،ص64.
22. الرواية، ص72.
23. الرواية،ص80.
24. الرواية،ص85.
25. الرواية،ص87.
26. الرواية،ص90.
27. الرواية،ص97.
28. الرواية،ص99.
29. الرواية،ص110.
30. الرواية،ص111.
31. الرواية،ص110.
32. الرواية،ص131.
33. الرواية،ص131.
34. الرواية،ص150.